

التربية.. أسسها النفسية ومقاصدها الاجتماعية

حجاج أم الخير
جامعة سيدي بلعباس.

للتربية أهمية بالغة عند الأمم والشعوب فهي عماد تطورها وازدهارها وهي وسيلتها الأساسية للتطور والترقي، لذا لم تبخل الشعوب يوما في بذل الجهود من أجل تطوير النظم التربوية والتعليمية بما يساير متطلبات الزمن والتاريخ، ولذا كانت التربية دائمة التغير تبعا لتغيرات الزمن وتطورات المجتمعات واتساع نظرة الإنسان إلى مفاهيم التربية ومشكلاتها وهي بهذه القيمة أصبحت مسألة حيوية عند الشعوب والمجتمعات، فهي تلعب دورا بارزا في التنشئة والتنمية الاجتماعية للفرد والمجتمع، إذ تقوم التربية على تنمية الشخصية الاجتماعية المتكاملة والقادرة على حمل مسؤولياتها إضافة على ضمان استمرارية المجتمع وتطوره.

تهتم التربية الحديثة بشروط إعداد الفرد إعدادا نفسيا واجتماعيا ومعرفيا جيدا حتى يكون اقدر على تحمل المسؤوليات التي توكل إليه. ولذا السبب اتجهت الفلسفة التربوية والتعليمية الحديثة إلى العناية بوجوب تهذيب العقل وتزويده بالمعارف والقدرات وبهذا رأت ضرورة الاهتمام بالإنسان من كل نواحيه الفكرية والنفسية والأخلاقية.

وكانت الفلسفة الإسلامية سباقة في المجال فرأت أن التعلم وتحصيل المعرفة ليست عملية جاهزة ، وإنما هي عملية مستمرة تبدأ من المهد إلى اللحد يسترشد فيها المسلم بعقله وقلبه وبأدوات المعرفة المختلفة، (فالفلسفة الإسلامية إيمانية تقوم على الإيمان بالله وكتبه ورسله كما أنها فلسفة إنسانية

تنظر إلى الإنسان باعتباره كائناً متميزاً في خلقه وتكوينه ووظيفته وغاية وجوده ولا تهمل خصائصه المادية الروحية، وهي فلسفة أخلاقية تقوم على الأخلاق والقيم السامية)¹. وبهذا كان العلم في نظر أبو حامد الغزالي هو (أشرف الصناعات وأفضلها فقد نظر إلى مرتبة العلم على أنها أعلى من سائر المشتغلين بالمهن والصناعات الأخرى كالزراعة والصناعة وغيرها، وقد وضع الغزالي للمعلم مجموعة من الخصائص منها الشفقة على المتعلمين وعدم الاستهانة بالعلوم الأخرى وتقدير أن مسؤولية المعلم تكون لوجه الله ورغبة في نيل مرضاه. وبذلك يجب أن يستعمل قدرته وبصيرته من أجل تحقيق الوظيفة المرغوبة التي تشترط عند أبي حامد الغزالي مراعاة غرائز الطفل وطباعه واستعداداته في اختيار مادة التعلم والتدرج بها خطوة خطوة في عملية التعلم، مما يكسبه تحقيق المهارات الأساسية للحياة العملية والجمع بين القيم المعنوية والاعتبارات المنفعية.²

مقومات التربية الحديثة

لا شك أن العلم الحديث يشهد كثيراً من التطورات الهائلة التي أصابت الحياة الاجتماعية وأثرت في تربية الإنسان الحديث ، كما أثرت في سبل ومناهج التعلم والتعليم، وكان لذلك تأثيره كذلك على التربية ، فمن المعلوم أن التربية لا تتشكل في فراغ ، وإنما تستمد مقوماتها من ثقافة المجتمع، (إذ لا تربية بدون أساس ثقافي تقوم عليه. وأساس التربية يقوم على المحافظة على التراث الثقافي وتوجيهه وتنقيته وتحسين عناصره كي تضمن للمجتمع التقدم والنمو والازدهار، وبهذا تحفظ التربية الثقافة وتنقيها مما يعلق بها من عناصر سلبية خارجة عن روح الثقافة التي يعيشها الأفراد وبذلك تزداد فاعليتها في

تنمية السلوكات الايجابية التي تشكل نقطة انطلاق الفرد نحو التفكير السليم والإبداع المثمر).³

التربية ومقتضيات المجتمع.

ترتبط التربية برابط وثيق بالمجتمع الذي تنتمي إليه وتتأثر به ، وهي لذلك ضرورة اجتماعية تهدف إلى الاهتمام بالمجتمع وتلبية حاجياته وتكييف أفرادهم مع بيئتهم من هلال تفاعله المستمر معها، (فالتربية إذا هي العملية التي تشكل الفرد وتكيفه مع الواقع من خلال بناء شخصيته بما يتوافق مع شروط ومتطلبات ثقافته الاجتماعية، وبهذا المعنى فهي عملية التنشئة الاجتماعية إذ تعرف التنشئة الاجتماعية بأنها) عملية اندماج الفرد في المجتمع في مختلف أنماط الجماعات الاجتماعية وإشراكه في مختلف فاعليات المجتمع عن طريق استيعابه لعناصر الثقافة والمعايير والقيم الاجتماعية التي تتكون على أساسها سمات الفرد ذات الأهمية الاجتماعية).⁴

الأسس النفسية للتربية:

تقوم الأسس النفسية للتربية على مجموعة من المبادئ والمرتكزات ،منها:

1. معرفة طبيعة المتعلم. فمن الثابت لنجاح أي تربية هو المعرفة الدقيقة بطبيعة المتكلم ومكوناته وحاجاته المختلفة، (ذلك أن المتعلمين أصناف مختلفة، وهم يختلفون باختلاف قدراتهم واستعداداته النفسية وباختلاف البيئة والوسط الثقافي والاجتماعي وعلى ذلك تكون معرفة المتعلم مرتبطة بمعرفة جميع الشروط المحيطة به.من هنا كان على المربين أن يأخذوا هذه العوامل في الاعتبار

وأن يقدروها أحسن التقدير حتى تحقق العملية التربوية ومن ثم التعليمية أهدافها المطلوبة.

2. معرفة طبيعة التعلم. ويكون ذلك بمعرفة موضوع التعلم ومحتواه وأهدافه وغاياته وأنماطه المختلفة.

3. معرفة البيئة: لقد بدا واضحاً في التربية الحديثة أن الفروق الفردية بين الناس في سلوكهم وطبيعة سماتهم وقدراتهم لا ترجع إلى عوامل الوراثة وحدها أو إلى عوامل المجتمع وحده ، وإنما هي حصيلة تفاعل عناصر وعوامل مختلفة، فجدير بالذكر أن الفروق الفردية فروق كمية وليست نوعية ، أي أن الفرق بين شخص وآخر لا يعني أن أحدهما لديه قدرات لا تتوافر بتاتا في الشخص الآخر ، ولكنها تعني أن جميع هذه القدرات متوافرة في كل فرد وأن الفرق ينحصر في مقدار توافر القدرة أو السمة في كل فرد، وبما أن الفروق الفردية كمية، فمعنى هذا أنه لا يمكن قياسها.⁵

وما يجدر ذكره في هذا السياق أن التطبيق العملي للتربية يستمد طرقه وصور تجربته من علم النفس، فقد أدى تطبيق العملية لعلم النفس على التربية إلى الإسهام في تكون الطرق والمناهج التربوية ذاتها، إضافة على أن التربية (تستمد حقائقها من نمو الطفل وتطور استعداداته وانفعالاته من علم النفس كما أن (أحد الاتجاهات الحديثة في التربية هو ضرورة الأخذ بعين الاعتبار الفروق الفردية بين الطلبة من حيث قدراتهم وإمكاناتهم واستعداداته واتجاهاته وميولهم وهو ما يسعى إليه علم نفس النمو)⁶

التربية وحاجات التعلم:

تختلف حاجات الأفراد باختلاف العمر والجنس، فحاجات الأطفال تختلف عن حاجات الكبار وحاجات الذكور تختلف عن حاجات الإناث

وحاجة الشباب تختلف عن حاجات الشيوخ، فالمعرفة بهذه الحاجيات تساعد التخطيط التربوي على اختيار السبل الأنجع والمنهاج القويم، وهنا كان المفروض أن يشجع المتعلم على إشباع حاجياته المختلفة وفق التوجيه السليم الذي يضمن العناية ويكيف مجرى الحاجيات.

—الدوافع: لا تقوم التربية بدون دوافع أو حوافز، وتعرف الدوافع بأنها) قوة داخلية محسوسة وغير مرئية لدى الإنسان تدفعه للتصرف والسلوك بشكل معين من أجل إشباع حاجته أو رغبة لديه، إذ يحدث عدم إشباعها بداخله قلقاً وأن إشباعها يشعره بالراحة ويعيد التوازن إلى نفسه).⁷

وتصنف هذه الدوافع بحسب ارتباطاتها النفسية والاجتماعية والبيئة ، ومن سماتها أنها أكثر عرضة للتبدل والتغيير.

الدافعية والتربية: من الثابت أن التعلم لا يكون نافعا ومجديا إلا إذا اقترن عند المتعلم بحاجاته المختلفة ودوافعه القوية فقد أظهرت كثير من الدراسات) أن توافر الدافع للتعلم أحد الأمور الضرورية للسعي في طلبه، وأنه كلما قوي الدافع تزداد الجهود المبذولة في عملية التعلم ، كما بينت بعض هذه الدراسات أيضا أن مستوى الدافعية لدى المتعلم يرتفع بشكل جوهري حينما تكون الأعمال المطلوبة من المتعلم سهلة، وأنه يتناقص كلما كانت الأعمال المطلوبة منه صعبة ، بينما بين بعضها الآخر أن الدافعية المشحونة بقوة للطلبة تزيد من هفواتهم بشكل واضح وتعدد المرات التي يحتاجون معها العودة من جديد إلى نقطة البداية بسبب الخطأ الناجم عن هذا التضعيف أو هذه المبالغة، ولهذا السبب كانت أهمية الدافعية من الوجهة التعليمية نابعة من كونها هدفا تربويا فإثارة دافعية التلاميذ وتوجيهها الوجهة الصحيحة من شأنه أن يحقق أهداف العملية التعليمية ، وبهذا كان التعلم يعرف على أنه) إحراز طرائق

ترضي الدوافع وتحقق الغايات، ولذلك فإنه قد يتخذ صورة حل المشكلات أو صورة استجابات جديدة أو صورة الاستزادة أو صورة السرعة في الانجاز أو الدقة فيه، وقد يتخذ صورة استبعاد الخطوات غير الضرورية التي رافقت بدايات التعلم).⁸

المعلم والوظيفة التربوية.

إذا كان لا أحد ينكر الدور الرئيس للمعلم في العملية التربوية، فإن الواقع المعاصر يشير إلى أن المعلمين أصبحوا يواجهون الكثير من التحديات وخاصة تلك التي فرضها التطور الصناعي والتكنولوجي وانعكست بشكل كبير على تربية الأفراد وثقافتهم، وكان من نتيجة هذه التحديات أن تطورت العملية التعليمية تطوراً واضحاً ومتزايداً، فمن المعلوم أن مهنة التعليم في الواقع الحاضر لا تعمل على نقل المعلومات والمعارف إلى المتعلمين فحسب، وإنما تقوم على جهد علمي مدروس يهدف إلى تهذيب الأجسام والعقول والنفوس وتطوير الاستعدادات والقدرات والمواهب واكتشاف الناشئة . وبهذا كان التعليم الجيد يحتاج إلى توافر ستة عناصر هي:

- المعلم أو الموجه أو المرشد
- المتعلم وهو الفرد الذي يرغب في التعلم.
- المادة أو موضوع التعليم.
- طريقة التدريس ووسائلها
- التقويم المناسب.
- البيئة وتشمل المكان المناسب والظروف الملائمة والمناخ العام الإيجابي).⁹

ولا شك أن وظيفة المعلم لا تقوم بدون منهج قويم ، أي منهج دراسي دقيق يهتم بحاجيات الفرد واهتماماته ورغباته، وبذلك يشمل المنهج في مفهومه الواسع جميع المواد الدراسية المقررة والتجارب المختلفة والخبرات التي يعيشها التلميذ داخل المدرسة وخارجها. وعلى هذا الأساس كان لابد في وضع المنهج من التخطيط الجيد للعملية التربوية في تحقيق أهدافها المنوطة بها، وهي أهداف تنقسم بحسب شموليتها إلى ما يأتي:

الأهداف العامة: وهي أهداف تضمن للعملية التربوية توجيهها عاملا وشاملا وترتبط بالمجتمع وثقافته وتوجهاته.

الأهداف التعليمية الخاصة:

وهذه الأهداف التي تركز على المتعلم وتتصف بأنها محددة ومفصلة.

الأهداف السلوكية النهائية ، وهي أهداف تصف الانجاز المحقق والمتوقع، وتعد هذه الأهداف جزءا من الأهداف التربوية العامة.

وطريقة تحقيق هذه الأهداف لا تبنى على قواعد ثابتة فلا بد من مراعاة الطبيعة المرنة للمنهج التي تدرك حجم وطبيعة التغيرات الحاصلة في المجتمع والمستجدات الحاصلة في الثقافة والبيئة وبقدرة الفرد واستعداداته وقابليته على التعلم، فكما يجب أن تشجع التربية على التحصيل المعرفي تشجع أيضا على إيجاد التوازن النفسي للمتعلمين وتحقيق البيئة التعليمية المناسبة التي توفر لهم التحفيز والتعبير عن قدراتهم، فمن أولى اهتمامات التربية وأهدافها هو تكوين الطفل السليم اجتماعيا والقادر على الاندماج في مجتمعه وتهذيب أخلاقه بحيث يتعد عن الأنانية وحب الذات وتحقيق الأمانة والاستقامة والصدق بما يتماشى

مع القيم الأخلاقية الفاضلة للمجتمع. فمن المعلوم أن المسؤولية الملقاة على أساليب التعليم والتربية والتنشئة تكمن في الإدراك الجيد لمتطلبات الطفولة لأنها هي البداية لتحقيق تربية متوازنة وسليمة، فعلى عاتق التربية أساساً يقوم الجهد على اكتشاف ميول الطفل وهواياته وإلى إطلاق العنان لخياله الخصب وقدراته وإمكانياته وإبداعاته.

إن نجاح العملية التربوية يتوقف على مدى تحقيقها للأهداف والغايات المرسومة حيث لا يتم تحقيق هذه الأهداف لدى الأفراد دفعة واحدة وإنما تتشكل هذه الأهداف عبر أجزاء صغيرة تتراكم على بعضها البعض لتشكل السلوك النهائي).¹⁰

التعلم ومصدره الحضاري.

إن أي منهج تعليمي لا يكتب له النجاح إلا إذا اغترف من معينه الثقافي والحضاري، كما أن أنجع وسيلة يتعلم بها المتعلم هي الوسيلة الأقرب من ثقافته وبيئته، ولهذا كان على المعلم الإمام بثقافة مجتمعه وتاريخه وحضارته (والمعلم إذ يقدم الثقافة للتلميذ، فإنه لا يقدمها برمتها صالحة وطالحة، وإنما يقوم باختيار انسب عناصرها وفق الفلسفة التربوية التي يرسمها المجتمع ووفق الأسس والمعلومات النفسية التي يعرفها عن التلاميذ، كذلك يقدم المعلم الثقافة للتلميذ بعد تبسيط عناصرها وتفسيرها وفق المستوى الذي يناسب التلميذ، ولا يعني التبسيط هنا اختصار المعلومات والمعارف والمهارات، وإنما يكون بتقديم الثقافة لكل تلميذ بقدر ما يناسبه وبالطريقة التي تناسبه).¹¹

وبقدر ما تسهم التربية في ضمان استمرار المجتمع وتطوره من خلال عمليات المحافظة والإسهام في نقل التراث الثقافي ونقل خبرات وعادات

وتقاليد المجتمع، فإنها تعمل كذلك على إنتاج الشخصية المتكاملة عقليا ونفسيا واجتماعيا وقادرة على القيام بدورها على أكمل وجه، فهي بهذا المعنى علم له مقوماته وأسس، وهي فن من حيث أنها تعمل على تكوين وتدعيم القيم الجمالية والإبداعية لدى المتعلم. وهي في الحالتين تعمل على تحقيق الأهداف التي تحقق السعادة للفرد والمجتمع. ومن هنا عد كثيرون من المربين التربية علما وفنا يكمل كل منهما الآخر، (فالعلم يعني المعرفة والفن مهارة وموهبة التطبيق لهذه المعرفة، وبالتالي فإن الفن ما هو إلا تطبيق للعلم، فالتربية كعلم تحتوى مجموعة من الأسس والمبادئ والنظريات والقوانين أمكن التوصل إليها عن طريق التجارب السابقة وأصبح بالإمكان العمل بمقتضاها، والتربية فن تعتمد الشخصية والموهبة والإبداع والابتكار والخيال الخصب)¹²، وبهذا المعنى فإن التربية موضوع بالغ السعة والتعقيد، وهي نظام ثقافي متكامل تعمل على نحو تكاملي لتحقيق الأهداف المنشودة.

ضمن هذا المنظور يمكن القول أن العملية التربوية تهدف إلى تحقيق الغايات الآتية:

1. المحافظة على بقاء المجتمع وتماسكه واستمراره.
2. دمج الأفراد في ثقافة المجتمع، إذ يخضع الطفل في بداية عهده لعمليات الاكتساب بالتقليد والمحاكاة.
3. تحقيق الترابط والانسجام الاجتماعي إذ تعمل التربية على تركيز اهتمام الأفراد على العناصر التي تعزز الروابط والعلاقات الاجتماعية.
4. تعميق القيم والمعايير الاجتماعية لدى الأفراد.
5. تثبيت القيم والأفكار الجديدة التي تتناسب مع المجتمع وطبيعته.
6. تحقيق النمو المتوازن بين الأفراد في نواحيهم الجسمية والعقلية والفكرية).¹³

- ¹ عمر احمد همشري، مدخل إلى التربية دار صفاء للنشر والتوزيع عمان، ط1-2006. ص144.
- ² ينظر إبراهيم ناصر، أسس التربية، دار عمار، الأردن ط1-1999. ص97.
- ³ عمر احمد همشري، مدخل إلى التربية ص149.
- ⁴ اوسيف أصول علم الاجتماع. دار التقدم القاهرة ط1-19990. ص165.
- ⁵ عمر احمد همشري، مدخل إلى التربية ص122.
- ⁶ ينظر احمد اللقاني، المناهج بين النظرية والتطبيق، عالم الكتب القاهرة ط1-1982. ص201.
- ⁷ عمر احمد همشري، الإدارة الحديثة للمكتبات ومراكز المعلومات، عمان مؤسسة الرؤى العصرية ط1-2001. ص191.
- ⁸ مصطفى فهمي، سيكولوجية التعلم مكتبة مصر، القاهرة 1952. ص19.
- ⁹ عمر احمد همشري، مدخل إلى التربية، ص225.
- ¹⁰ ينظر عماد عبد الرحيم الزغلول، دار الكتاب الجامعي، الإمارات العربية المتحدة، ط2-2012. ص47.
- ¹¹ عمر احمد همشري. مدخل إلى التربية ص163.
- ¹² إبراهيم ناصر، مقدمة في التربية، دار عمار، عمان الأردن ط1-1999. ص13.
- ¹³ ينظر: عمر همشري، مدخل إلى التربية ، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان ط2-2007. ص175.